

ابن عمار والسيرة النبوية من خلال رحلته "نحلة اللبيب
بأخبار الرحلة إلى الحبيب"

**Ibn 'Ammār and the Prophetic Biography as
Reflected in His Travel Account *Nuhalat al-Labīb*:
*Reports of the Journey to the Beloved.***

فريد فوغالية

f.foughalia@univ - skikda.dz

جامعة 20 أوت 1955_سكيكدة (الجزائر)،

أحمد بوعنينة

ahmed.bouaninba@univ-constantine2.dz

جامعة عبد الحميد مهري_قسنطينة (الجزائر)،

تاريخ الاستلام: 2025/11/03 تاريخ القبول: 2025/12/12 تاريخ النشر: 2025/12/21

ملخص

تعالج هذه الورقة البحثية رؤية أبو العباس أحمد بن عمار الشهير بـ "ابن عمار" وهو من رجالات القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال رحلته "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"، حيث برز من خلالها تركيزه على مسألة الاحتفال بالمولد النبوي مع عرض أقوال القائلين بمشروعية الاحتفال والمحرمين له، وتعامل السلطة القائمة مع هذه المسألة، ثم مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم التي عرضها في أبيات شعرية تدخل تحت صنف المولديات، كما تحاول هذه الورقة البحث في مصادر ابن عمار في رحلته ودرجة موثوقية الأخبار التي نقلها.

كلمات مفتاحية: ابن عمار، الرحلة، الرسول، المولد النبوي.

Abstract:

This research paper examines the vision of Abu al-‘Abbas Ahmad ibn ‘Ammar, known as “Ibn ‘Ammar,” one of the prominent figures of the twelfth century AH/eighteenth century CE, regarding the biography of the Prophet Muhammad (peace be upon him) through his travel account *Nihlat al-Labib bi-Akhbar al-Rihla ila al-Habib*. The work highlights his particular focus on the issue of celebrating the Prophet’s birthday (al-Mawlid al-Nabawi), presenting the opinions of those who advocate the permissibility of such celebrations as well as those who prohibit them, in addition to examining the stance of the ruling authorities toward this matter. The paper also discusses the virtues of the Prophet (peace be upon him) as presented by Ibn ‘Ammar in poetic verses that fall within the genre of Mawlid poetry. Furthermore, this study seeks to investigate the sources upon which Ibn ‘Ammar relied in his travel narrative and to assess the degree of reliability of the accounts he transmitted.

Keywords: Ibn ‘Ammar, travel literature, the Prophet, the Prophet’s birthday (al-Mawlid al-Nabawi)

مقدمة

أولاً: التعريف بالمؤلف

هو أبو العباس أحمد بن عمار بن عبد الرحمن بن عمار¹، ولا نملك تفاصيل كثيرة عن حياته ولا نسبه وأصوله، وأقدم مصدر تحدث عن ابن عمار

¹ - ابن عمار: أبو العباس سيدي أحمد: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، تح: عبد الجليل شقرون، رسالة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد_تلمسان، 2017، ص59.

في الجزائر هو صديقه عبد الرزاق بن حمادوش¹، حيث قرظ له ابن عمار كتابا بعنوان "الدرر على المختصر" سنة 1159هـ/، وقد اعتبره ابن حمادوش من العلماء المنصفين الذين لا يحملون حسدا ولا ضغينة²، وقد عاش ابن عمار إلى ما بعد سنة 1205هـ كما نعرف من إجازته خلال هذا التاريخ لتلميذه محمد خليل المرادي الشامي³، وعلى اعتبار اكتمال عقل الرجل عند بلوغ الأربعين وامتلاكه من العلم ما يمكنه من الجلوس للدرس والفتيا يمكن الافتراض أن ابن عمار كان يبلغ من العمر حوالي سنة 1159هـ وهو تاريخ تقريظه لكتاب ابن حمادوش حوالي أربعين سنة، وبذلك يكون قد ولد حوالي 1119هـ⁴، وأما وفاته فالراجح أنه توفي حوالي 1205هـ أو بعدها بقليل حيث تنقطع أخباره بعد هذا التاريخ⁵.

وبقدر ما كان ابن عمار حريصا على الترجمة لغيره بقدر ما أهمل نفسه، ولم يفعل ما فعله على الأقل زميلاه الورتلاني⁶ وابن حمادوش اللذان ساقا

¹ عبد الرزاق بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري، من علماء الجزائر خلال القرن الثامن عشر الهجري، ولد بمدينة الجزائر سنة 1695م لأسرة ميسورة الحال تمتن الدباغة، درس مختلف العلوم بالجزائر واتجه بالخصوص لدراسة العلوم العقلية كالرياضيات والطب، وقد وتقلد وظائف دينية متعددة، ومنذ العشرينات من عمره رحل يطوف مختلف أرجاء البلاد الإسلامية، وقد عاش طويلا حوالي تسعين سنة، ومن غير المؤكد تاريخ ومكان وفاته. أنظر: ابن حمادوش، عبد الرزاق الجزائري: رحلة ابن حمادوش المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تج: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، 9، 10.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ج2، ص224، 225. وانظر: ابن حمادوش، مصدر سابق، ص259، 260.

³ أبو القاسم سعد الله: مرجع سابق، ج2، ص225.

⁴ نفس المصدر والصفحة.

⁵ ابن عمار: مصدر سابق، ص60.

⁶ الحسين بن محمد السعيد الشريف الورتلاني، ولد عام 1125هـ/، وتوفي عام 1193هـ/ أو 1194هـ/، أخذ العلم عن والده وأشياخ البلد، ثم رحل إلى بلاد المشرق طالبا للعلم وأداء

حياتهما في رحلتهما¹، فكان رغم مكانته الأدبية والفقهية مجهولاً لدينا، فلا نعرف من نسبه شيئاً إلا على سبيل الظن، ويبدو أنه ينتمي إلى أسرة عريقة في العلم والشرف ومن الأسر التي كان لها شأن في الجزائر²، ويرجح أبو القاسم سعد الله أنها كانت من أصول أندلسية³.

وأما بالنسبة لطلبه العلم فقد تلقى ابن عمار في بداياته الأولى العلم على يد علماء الجزائر، قبل أن يسافر إلى المشرق، ولا شك أن دراسته قد تركزت أكثر على الفقه والأدب، حيث كان من عادة المتعلمين آنذاك الانتقال بعد حفظ القرآن إلى حفظ المتون الفقهية، والاعتناء بحواشها وشروحها، كمختصر خليل بن إسحاق المالكي، إضافة إلى كتب أخرى تكون مكنته من تولي وظيفة الإمامة والخطابة والفتيا فيما بعد، وهذه الوظائف لا ينالها كما هو معلوم إلا من كان له باع معتبر في مختلف العلوم الشرعية⁴.

وأما الأدب؛ فقد كان ابن عمار شديد الميل إليه من خلال حفظه عيون الشعر العربي القديم، كالمتنبي والبحتري وأبي تمام، إضافة إلى درر المنثور كرسائل لسان الدين بن الخطيب وغيره، دون أن يهمل التاريخ والسير، سواء ما تعلق بتاريخ الإسلام أو الأمم الأخرى⁵.

فريضة الحج. أنظر: الورتلاني، سيدي الحسين بن محمد: الرحلة الورتلانية الموسومة بتزمة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008، ج1، ص 6-8.

¹- أبو القاسم سعد الله: مرجع سابق، ج2، ص224.

²- ابن عمار: مصدر سابق، ص61.

³- أبو القاسم سعد الله: مرجع سابق، ج2، ص227.

⁴- ابن عمار: مصدر سابق، ص62.

⁵- نفس المصدر والصفحة.

وأما بالنسبة للوظائف التي تولاها ابن عمار فقد تولى وظيفة الفتوى على المذهب المالكي سنة 1180هـ، ولم يدم ذلك إلا بضعة أشهر، ثم تولاها مرة أخرى في نفس السنة وظل في هذه الوظيفة إلى سنة 1184هـ¹.

وبالنسبة لرحلاته فقد أدى ابن عمار فريضة الحج سنة 1166هـ وقد أكد ذلك زميله الحسين الورتلاني الذي حج معه ودرسا معا في القاهرة²، وحسب تلميذه التونسي ابراهيم السيالة فقد قدم ابن عمار إلى تونس سنة 1195هـ/ "بقصد الاستيطان بها"، وقد كانت له فيها مناظرات مع علماءها، ولكنه اضطر لمغادرتها بسبب -فيما يظهر- منافسة العلماء التونسيين له، وموت الباي، ثم وفاة صديقه حمودة بن عبد العزيز سنة 1202هـ³، وهذا ما دفعه إلى الهجرة إلى المشرق من جديد ومجاورة الحرم، ويبدو أنه قد توفي ببلاد الحرمين⁴.

وأما بالنسبة لمؤلفاته فقد أحصى أبو القاسم سعد الله عددا منها هي⁵:

لواء النصر في فضلاء العصر وهو كتاب في التراجم.

نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب ويبدو أنه أتمها خلال رحلته الأولى للحجاز.

حاشية على الخفاجي في "شرح الشفاء" للقاضي عياض.

رسالة في قوله تعالى ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾.

تاريخ الباي علي باشا من حسين باي تونس.

رسالة في الطريقة الخلوتية.

رسالة في مسألة وقف، مطبوعة ضمن أجوبة وفتاوى صديقه إسماعيل

التميمي.

¹ - أبو القاسم سعد الله: مرجع سابق، ج2، ص225.

² - نفس المصدر والصفحة.

³ - نفسه، ص226.

⁴ - نفس المصدر والصفحة.

⁵ - نفسه، ص ص 230، 231.

رسائل وإجازات وتقاريظ وقطع في الوصف ونحوه.

ديوان شعر في المدائح النبوية والوصف وغير ذلك.

ثبته المسمى "مقاليد الأسانيد".

شرح على البخاري ذكره محمد بن أبي شنب في مقال له.

ثانياً: الاحتفال بالمولد النبوي في الجزائر:

يؤكد ابن عمار أن عزمه على الرحلة إلى البلد الحرام قد بدأ في أوائل سنة 1166هـ حيث يقول: اعلم...أني عزمت على الرحلة إلى الحجاز عزمًا نسخت حقيقته المجاز، أوائل سنة ست وستين ومائة وألف، وأنا لا أوى من القلق إلى منزل، ولا أسكن إلى ألف، قد شبّ عمري وشوقي على الطوق، وحملني الحنين إلى الحبيب فوق الطوق، والشوق أعظم من أن يحيط بوصفه قلم، وأن يطوى عليه كتاب¹، ويظهر من خلال هذا النص شدة رغبته في زيارة بلاد الحرمين، والنزول عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم تحقيقاً لرغبة عميقة تتملكه وشوق عظيم يسكنه.

وقد ابتدأ المؤلف حديثه في رحلته التي عنوانها بـ "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" بالحديث عن وجوب فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، مُستدلاً في ذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية تؤكد على فضل هذه الفريضة ولزومها على القادر عليها، مع وجوب زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

لا يورد ابن عمار أخباراً كثيرة أو تفاصيل مهمة عن الاحتفال بالمولد النبوي في الجزائر أواخر العهد العثماني، وإنما يكتفي بإيراد شذرات قليلة حول هذه الاحتفالات لا تعطينا صورة دقيقة وشاملة عنها، وعن كيفية إحياء أهل الجزائر في مختلف ربوع البلاد لهذه المناسبة، ومع ذلك نجده يؤكد على شدة اعتناء الحكام الأتراك في الجزائر بالاحتفال بذكرى المولد النبوي، إذ كانوا "يعتنون بذلك الاعتناء التام، ويبذلون فيه الأموال البذل التام، وعينوا في أكثر البلاد مصاريق لذلك كما هو معلوم شاهد²، وأما السبب الكامن وراء شدة

¹- ابن عمار: مصدر سابق، ص 139، 140.

²- نفسه، ص 298.

الحرص هذه هو استحسان ذلك "بالأحاديث والمنامات الصالحة"¹ معتبرين هذا الفعل بدعة حسة لما فيه من إغاضة لأهل الزيغ²، ولا يوضح لنا المؤلف من المقصود هنا بأهل الزيغ ولعلمهم الرافضون لهذه الاحتفالات لما فيها من مفسد حسب اجتهداتهم، أو هم أهل الملل الأخرى.

وفي هذه المناسبة يفرق الكاتب بين احتفالات السلطة بالمولد النبوي ومن يرتبط بها من أهل الخاصة، ورجال الدولة، واحتفالات عامة الناس، بالنسبة للفئة الأولى يورد ابن عمار هذه الإشارة الوحيدة في وصف الاحتفالات الرسمية بالمولد النبوي فيقول: "هذا وقد جرت عادة أهل بلادنا الجزائر...أنه إذا دخل شهر ربيع الأول، انبرى من أدباءها وشعرائها من إليه الإشارة وعليه المعمول إلى نظم القصائد المديحيات، والموشحات النبويات، ويلحنونها على طريق الموسيقى بالألحان المعجبية، ويقرؤونها بالأصوات المطربة، ويصدعون بها في المحافل العظيمة، والمجامع المحفوفة بالفضلاء والرؤساء، والنظيمة من المساجد والمكاتب والمزارات، وهم في أكمل زينة وأجمل زي، وأحسن شارات، تعظيما لهذا الموسم الذي شرف به الاسلام، واحتفائه بمولده عليه الصلاة والسلام"³.

واضح من خلال هذا النص شدة عناية السلطة التركية في الجزائر بإحياء ليلة المولد النبوي حرصا منها على إظهار التعظيم لمولد خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم، فصارت العادة عند هؤلاء الحكام جمع الأدباء والشعراء للتنافس فيما بينهم بإلقاء ما جادت به قرائحهم وأقلامهم خلال هذه المناسبة في جو طرب وفرح، يحرص على حضوره كبار رجالات الدولة في أبهى حلة وأحسن زي.

وأما بالنسبة لاحتفالات عامة الناس بهذه المناسبة فقد اكتفى المؤلف بإيراد خبر بسيط عن انتشار ظاهرة إيقاد الشموع في غالب البيوت احتفالا

¹ ابن عمار: المصدر السابق، ص298.

² نفس المصدر والصفحة.

³ نفسه، ص151، 152.

بالمولد النبوي، مع الحرص على ارتداء أحسن الثياب المتوفرة، ولبس أحسن الحلي، والتطيب بأطيب الطيب، وهذا إعظاما وتجيلا لهذا الموسم¹.

ثالثا: موشحات ومولديات في مدح النبي:

أورد ابن عمار قصائد عديدة قام بنظمها يتغنّى فيها بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم العطرة، مبرزاً حبه الشديد له، مع توظيفه لأحداث مفصلية في حياة النبي دلالة على سمو أخلاقه وعظيم صفاته.

من ذلك توظيفه للفترة التي قضاهـا مع مرضعته "حليمة السعدية"، والبركة التي نزلت عليها وعلى أهلها بمكوث النبي عندهم في طفولته المبكرة، حيث عمّم الخير الوفير، واستحال فقرهم غنى، وفاقتهـم ثراء، وجذبهم خصبا، وكثر در أنعامهم بالألبان فيقول²:

وسل الأقوام أو سل بنت سعد عند إرضاعه
عن مثير البكر في الرفقة بعد حين إرضاعه
يا لها من منة حازت وسعد يوم إرضاعه
أصبح العيش لديها مخصبا يانع الأفنان
معهدا رحبا وضرعا صيبا سحّ بالألبان

كما يؤكد ابن عمار أن الله عز وجل قد اختار محمد بن عبد الله الهاشمي للنبوّة، قهو "خير خلق الله أما وأبا"³ حسب قوله، وأما عشيرة بني هاشم التي ينحدر منها النبي فإنهم "قوم كرام فضلوا الخلقا"⁴، ونتيجة لهذا الأصل الشريف صار المصطفى صلى الله عليه وسلم "عقد السرور" و"درة الكون"⁵.

ولا يفوته أيضا توجيه سهام اللوم والتفريع لكفار قريش الذين لم يستوعبوا حقيقة النبوة وضرورة الايمان بدعوة الاسلام بمجرد ظهورها بينهم،

¹- نفسه، ص 151، 303، 304.

²- ابن عمار: مصدر سابق، ص 161، 162.

³- نفسه، ص 159.

⁴- نفس المصدر والصفحة.

⁵- نفس المصدر والصفحة.

ورفضهم الاعتراف بنبوة محمد بن عبد الله خوفا على مصالحهم وامتيازاتهم
المادية الزائلة، وإصرارهم على تكذيب النبي رغم ما اشتهر به بينهم من أنه
الصادق الأمين، حيث يقول:

معشر الكفار قبحتم ملا سيء الخلق
أرسل الله إليكم رسلا أصدق الخلق
فأبيتهم وانثيتهم جفلا عن حمى الحق
هل عهدتم قط منه كذبا يا بني العدوان
لا ومن أرسله ما كذبا أبدا أو خان¹

مع ذلك لا تخلو قصائده من المبالغة في عرض بعض الحوادث التاريخية،
حيث نجد إشارة إلى ارتباك البلاط البيزنطي وزعيمه "قيصر" من الدعوة
المحمدية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فضلا عن إضعاف المسلمين
لإمبراطورية فارس، ثم القضاء عليها وضمها إلى خلافتهم، رغم أن هذه الحوادث
وقعت زمن الفتوحات الإسلامية خلال عهد الخليفين عمر بن الخطاب ثم
عثمان بن عفان رضي الله عنهما. حيث يقول²:

وبها قيصر أمسى وصبا شاكيا حيران
يرصد الزهر فيجني وصبا من يد الخسران
سل طغاة الفرس ما بال الخمود حلّ بالنار
ألف عام وهي تزهو بالوقود زندها وار
وعيون لهم تشكو الجهود بعد إنهار
هل دروا حين رداهم خربا بهجة الايوان
أن ملكا قد حووه سلبا من أنو شروان

إن حوادث السيرة النبوية وما أحدثته بعثة محمد صلى الله عليه وسلم
من قطيعة مع الموروث الجاهلي بكل سلبياته، والتغيير الهائل الذي تمخض عنها
ليس في الجزيرة العربية فحسب؛ بل في عموم العالم، يجعل من اللازم وفق تصور

¹ - ابن عمار: مصدر سابق، ص 162.

² - نفسه، ص 161.

ابن عمار جعل يوم ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم عيداً للمسلمين، وشهر ميلاده شرح فرح وسرور، فيقول¹:

واتخذ عيداً وعرساً قد صفا	يوم ميلاده
يوم نلنا الفوز سفحاً وضمفاً	ظل إسعاده
وارتشفنا مرشفاً قد عذباً	معشر الإيمان
فسكرنا بشراب قرباً	من رضا الديان
لا عدمننا من ربيع موسماً	يبعث الأفراح
وهللاً نوره يُشفي العى	كلما قد لاح
شهر سلوان وأنس ونما	وسنى وضاح

رابعاً: حول أفضلية المولد النبوي وليلة القدر

يتعرض ابن عمار في ثنايا رحلته إلى مسألة المفاضلة بين ليلة مولد الرسول وليلة القدر، وأيهما أفضل وأشرف، وقد أورد عدة آراء حول المسألة، وسوف نكتفي هنا بإيراد نموذج واحد من كل موقف.

الأول هو لشهاب الدين القسطلاني² والذي نقله ابن عمار من كتابه "المواهب اللدنية"، حيث يرى القسطلاني أن ليلة المولد أفضل من ليلة القدر من ثلاث أوجه:

إن ليلة المولد هي ليلة ظهوره صلى الله عليه وسلم، بينما ليلة القدر هي ليلة معطاة له، وبما أن ليلة المولد قد شرفت بمولده هو، وهو من هو في الفضل

¹ ابن عمار: مصدر سابق، ص 158.

² أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القنبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، من علماء الحديث، ولد بالقاهرة سنة 1448 م، وتوفي بها سنة 1517 م، له عدة مؤلفات منها: "إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري"، و"المواهب اللدنية في المنح المحمدية". أنظر: كامل سلمان الجبوري: معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2002، ج 1، ص 250، 251.

والشرف والنبوة فإنها أشرف من الليلة التي أعطيت له، وبهذا الاعتبار كانت ليلة المولد أفضل.

صحيح أن ليلة القدر قد شرفت بنزول الملائكة فيها، بينما ليلة المولد قد شرفت بمولد الرسول فيها، الرسول، ومن شرفت به ليلة المولد (الرسول) أفضل ممن شرفت به ليلة القدر على الأصح (الملائكة)، وهذا هو السبب الثاني في كون ليلة المولد أفضل من ليلة القدر.

السبب الثالث يرجع إلى كون ليلة القدر قد وقع التفضل فيها على أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقط، بينما ليلة المولد النبوي قد وقع التفضل فيها على سائر الموجودات، فهو الذي بعثه الله عز وجل رحمة للعالمين، وحصلت به النعمة التي عمّت جميع الخلائق، وبما أن ليلة المولد أعمُّ نفعاً من ليلة القدر كانت أفضل¹.

في المقابل يورد ابن عمار رأياً مخالفاً لرأي القسطلاني وقد نقله لنا عن ابن حجر الهيتمي² الذي يؤكد أن ليلة القدر خير وأفضل من ليلة المولد النبوي، وذلك لورود الآيات والأحاديث الدالة على فضلها، بينما لم يرد في فضل ليلة المولد شيء من ذلك، فكانت ليلة القدر أفضل من سائر الليالي قطعاً، كما أن شرف التفضيل قائم على شرف العمل في تلك الليلة، وأما تفضيل ليلة غير مخصوصة بفضل العمل فيها فذلك مما ليس له فائدة معتبرة³.

ولم يغفل ابن عمار إبراز موقفه من المسألة مع ترجيحه فضل ليلة المولد على ليلة القدر قائلاً: "فالحاصل في ليلة القدر حاصل فيها مع مزية عدم الاختلاف في الموجود في ليلة القدر، فإن قلت ليلة القدر اختصت بأعمال لم توجد في ليلة المولد، وذلك يدل على كونها أفضل وأشرف، قلت: الأعمال التي

¹- ابن عمار: مصدر سابق، ص 311، 312.

²- أحمد بن أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي المصري الشافعي، مفتي مكة، ولد سنة 911هـ، أخذ العلم عن علماء ومشايخ بلاد المشرق، اشتهر بكثرة التأليف والتصنيف، كانت وفاته سنة 973هـ. أنظر: الغزي، نجم الدين محمد بن محمد: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تح: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ج3، ص 101، 102.

³- ابن عمار: مصدر سابق، ص 313.

اختُصت بها ليلة المولد المشرف أهمُّ نفعاً، فإن ثمرة العمل في ليلة القدر أن تعود بالنفع على العامل دون غيره، ويلة المولد عاد نفعها على كل الخلائق¹.

هكذا نرى موقف ابن عمار يتماهى مع موقف القسطلاني في ترجيح أفضلية ليلة المولد على ليلة القدر لاعتبار المنفعة المُحصَّلة في كل واحدة منهما، فإذا كانت ليلة القدر ينحسر أجر العمل فيها بقدر اجتهاد المرء دون غيره، فكان فضلها مرتبطاً باجتهاده هو ومنفعتا خاصة به دون غيره من الناس، فإن ليلة المولد شهدت مولد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذي بُعث للعالمين رسولا، فكانت رسالته عالمية شاملة الناس جميعاً، واتباع سنته من خلال التزام أوامره واجتناب نواهيه لا يعود بالفضل على المرء وحده بل على عموم الناس، مسلمهم وكافرهم، وعلى اعتبار اتساع المنفعة وشملها جميع الخلائق بمولد الرسول كانت ليلة المولد خير من ليلة القدر.

لكن الملاحظ هو تجاهل القسطلاني ومعه ابن عمار لمسألة نزول القرآن الكريم في ليلة القدر، والتقليل من فضل ليلة القدر التي وردت فيها الآيات والأحاديث الدالة على فضلها مقارنة بليلة المولد، ثم إن ما رفع من قدر وشرف وفضل الرسول صلى الله عليه وسلم ليس مولده وإنما هو بعثته ونزول الوحي عليه، وهو المرتبط بليلة القدر حسب دلالة الآيات، فضلاً عن ذلك فإن هناك اختلافاً معتبراً بين المؤرخين القدامى في تاريخ مولد الرسول صلى الله عليه وسلم على الضبط، بينما هناك اتفاق على تاريخ وفاته.

خامساً: مفاصد في الاحتفال بالمولد النبوي:

لا يقدم لنا ابن عمار تفاصيل معتبرة عن المفاصد الحاصلة في الاحتفال بالمولد النبوي في الجزائر خلال عهده، مكتفياً- في الغالب- بنقل أخبار من تجاوزات خلال هذه المناسبة في بلاد الحجاز، معتمداً في ذلك على أخبار نقلها ابن حجر الهيتمي أساساً وابن قدامة²، والموقف الشرعي من هذه الأفعال

¹- نفسه، ص320، 321.

²- موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي ثم الدمشقي، من علماء الحنابلة، ولد سنة 541هـ بنابلس بفلسطين، تلقى العلم على يد علماء الشام والعراق، ووصف بأنه كان عالم

المنكرة، التي يلخصها ابن حجر بقوله: "يقع في تلك الليلة من المفاسد والقبايح ما تصم عنه الأذان"¹.

وتتمثل هذه التجاوزات في:

اختلاط النساء بالرجال في المسجد الحرام والمسجد النبوي.

تزين النساء بأحسن الحلي وأفخم الثياب.

تطيب النساء بأطيب الطيب رغم اختلاطهم بالرجال².

نصب الشموع وإيقادها.

السماح للنساء بالتطلع على الرجال والنظر إليهم³.

وفي الجزائر نجد من الممارسات المنتشرة استعمال المشامع والمجامر

المصنوعة من الفضة معتبرين ذلك من مظاهر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم⁴.

وأما الموقف الشرعي من هذه الممارسات فهو التحريم القاطع، لما في ذلك

من قبح وفساد، وافتتان الرجال بالنساء والعكس⁵.

وحسب ابن حجر فإن كثيرا من فقهاء المذاهب السنية الأربعة عملوا على

محاربة هذه الممارسات المنافية للشرع، ومنع النساء خاصة من الخروج في هذه

الليلة والاختلاط بالرجال⁶، ورغم ذلك وقعت معارضة معتبرة لهذا المنع، ويبدو

أن هذه المعارضة أصحابها من رجال الفقه والعلم أيضا، حيث يشير إليهم ابن

حجر بالقول "عارضهم آخرون"، دون تفصيل دقيق في خلفيتهم، ونتيجة لهذا

الشام في زمانه، من أشهر مؤلفاته كتاب "المغني"، توفي عام 620هـ. أنظر: الذهبي، شمس الدين

محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، تج: بشار عواد معروف، محي الدين هلال السرحان،

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1996، ج22، صص 165-172.

¹- نفسه، ص 300.

²- ابن عمار: مصدر سابق، ص 299، 300.

³- نفسه، ص 301.

⁴- نفسه، ص 301، 302.

⁵- نفسه، ص 301.

⁶- نفس المصدر والصفحة.

الموقف الرافض لمنع الاحتفالات بمولد النبي صلى الله عليه وسلم- يبدو أن أصحاب هذا الموقف لم يكن عددهم بالقليل- حدثت بين الطرفين صدامات عديدة، كانت الغلبة فيها كما يظهر لصالح المجيزين لهذه الممارسات الذين وافق موقفهم هذا هوى الناس وميولاتهم فضلا عن استخدامهم القوة المفرطة في فرض رأيهم¹.

في هذا السياق ينقل لنا ابن عمار حادثة وقعت له شخصا حيث تعرّض لأذى معتبر مع تهديد بالقتل بسبب محاولته منع الناس عن تلك الممارسات خلال تواجده بأرض الحرمين حيث يقول: "وقد وقع لي بالمدينة نظير ذلك، فسعيت في منع اختلاط النساء بالرجال في ليالي المولد والمعراج ومسم سيدنا حمزة، وموسم الحج، فعارض جمع ممن العلم في عمائمهم دون قلوبهم، وأغروا بي السفهاء والفسقة، حتى أنهم سعوا في قتلي مرارا بأنواع من السعي، ولم يزالوا إلى الآن، والله المستعان"²، واضح اذن من خلال هذا النص أن هذه الممارسات المنكرة قد انتشرت انتشارا واسعا، وقد وجدت من يؤيدها ممن يفترض أنهم رجال فقه، هؤلاء الذين كانوا يفرضون رأيهم مستغلين جهل الناس بالدين، وموظفين من وصفهم ابن عمار بالسفهاء والفسقة في فرض رأيهم ومحاربة أي محاولة لمنع لهذه المظاهر.

وعلى الرغم من استعراض ابن عمار للمفاسد المرتبطة باحتفالات المولد النبوي في بلاد الحجاز، وموقف الشرع منها، ومحاولة الكثير من الفقهاء الحد منها، مع إشارته إلى جهده هو في منع هذه الظواهر خلال إقامته بمدينة الرسول، نجده في المقابل ينقل لنا موقف "الرصاص"³ من الاحتفال بالمولد النبوي وجواز

¹ ابن عمار: مصدر سابق، ص301.

² نفس المصدر والصفحة.

³ محمد بن قاسم بن عبد الله الأنصاري أبو عبد الله الرصاص، من فقهاء المالكية، قاض ونحوي، وفقيه، ولد بتملسان، واستقر بتونس، وأصبح قاضيا للجماعة بها، وتولى آخر حياته إمامة جامع الزيتونة والخطابة فيه، متصديا للافتاء والاقراء، توفي بتونس سنة 1498م. أنظر:

الاحتفال به وإظهار السرور في تلك الأيام باعتبارها أيام خير وبركة مع ضرورة الالتزام بضوابط الشرع فيها دون تجاوز المحظور والمحرمات¹.

يؤكد ابن عمار-نقلا عن الرصاع أيضا- أن هذه الاحتفالات تقع في نطاق "الحسن من الأفعال" إذا اقتصر على اجتماع الناس على ذكر محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم، وتدارس سيرته، أما وجه التحريم فقام على ما يقع فيها من الأفعال المنكرة، من اجتماع آلة اللهو واختلاط النساء بالرجال، فلا يجوز تعظيم الرسول إلا بما يرضيه ويُرضي الله عز وجل².

لكن المفارقة التي يبدو أنها أوقعت ابن عمار في تناقض مع الموقف الشرعي من بعض السلوكيات الحاصلة في ليلة المولد عند خاصة الناس وعامتهم، ومحاولته هو شخصيا الحد منها في المدينة، حيث نجده يشير إلى أحد مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي بالجزائر والقائم على التلحين الموسيقي للقصاصد والموشحات وعرضها طربا في مجال الاحتفالات الخاصة بالسلطة الحاكمة³، ثم نجده يُعارض موقف ابن حجر الرافض لإيقاد الشموع في ليلة المولد، وهي من العادات التي يعتني بها أهل البلد حسب قوله، بل لا يكاد يخلو بيت منها، والغاية منها تعظيم موسم مولد الرسول صلى الله عليه وسلم وإدخال الفرح على النساء والبنين، معتبرا هذه الأفعال "...أمر لا بأس به إن شاء الله تعالى إذا حسنت النيات، وانطوت على أجمل المقاصد الطويات"⁴، وهذا الموقف من ابن عمار يقتدي فيه ببعض متأخري الفقهاء بالبلد على غرار ابن عباد والرصاع وغيرهما⁵. وكأن هناك تخفيفا لمسائل الاحتفال بالمولد النبوي، ففي الوقت الذي ظل فيه التشدد في منع اختلاط الرجال بالنساء في الأماكن العامة أو الخاصة خلال هذه

عادل نويس: معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويس الثقافية، بيروت، ط2، 1980، ص151، 152.

¹ راجع ما نقله ابن عمار حول هذه عن الرصاع في الصفحات: 306، 307، 308.

² نفسه، ص309.

³ ابن عمار: مصدر سابق، ص150، 151.

⁴ نفسه، ص303.

⁵ ابن عمار: مصدر سابق، ص303.

الاحتفالات، للموقف الشرعي القائل بحرمتهما، نظر هؤلاء الفقهاء لعادات إشعال الشموع وحتى تلحين القصائد الشعرية موسيقيا مما يدخل في خانة الجائر لأنه تعظيم للرسول وعدم خروج عن الشرع.

سادسا: احتفالات المولد النبوي في العصر الزباني:

ينقل لنا ابن عمار في رحلته هذه جانبا من احتفالات المولد النبوي في عهد السلطان الزباني أبي حمو، وقد اعتمد في أخباره عن هذه الفترة على "بغية الرواد" ليحيى بن خلدون، و"نظم الدر والعقيان"، و"راح الأرواح" للحافظ التنسي، حيث نجد تشابها معتبرا في نقل مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي في البلاط الزباني بين هذه المصادر، وواضح أن الحافظ التنسي قد اعتمد في روايته على عمل يحيى بن خلدون مؤرخ الدولة الزبانية المعاصر لتلك الفترة¹.

خلال الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم يقوم السلطان الزباني أبي حمو باحتفالات عظيمة على شرف هذه المناسبة، حيث يتم دعوة الخاصة والعامة على سواء، في مجالس مخصصة لكل فئة من الناس، حسب مكانتهم في الدولة والمناصب التي يتولونها²، أما السلطان الزباني فيحتل صدر مجلس الخاصة يحيط به أشراف الدولة وكبرائها وهم في أحسن زي وأبهى حلة³، وفيها نجد "ما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، ومشامع كأنها الأسطوانات القائمة على مراكز الصفر المموهة"⁴.

يبدأ الحفل بقصيدة ينشدها أبو حمو نظمها بنفسه في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم⁵، ثم بعد ذلك يتوالى عرض الشعراء لقصائدهم ومدائحهم وفيها "...مُكْفِرَات تُرْغِب في الاقلاع عن الآثام، يخرجون فيها من فن إلى فن، ومن

¹- أنظر: ابن عمار: مصدر سابق، ص 359 وما بعدها.

²- ابن عمار: مصدر سابق، ص 360، 361.

³- نفسه، نفسه، ص 361.

⁴- نفس المصدر والصفحة.

⁵- نفسه، ص 360.

أسلوب إلى أسلوب، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس، وترتاح إلى سماعه القلوب"¹، وتستمر هذه الاحتفالات المهيجة طيلة حيث تنتهي مع صلاة الصبح.

خاتمة:

في ختام هذه الورقة نخلص إلى النتائج التالية:

- على الرغم من أن عنوان الرحلة يشير إلى الإخبار بحوادث أو تفاصيل رحلة صاحبها إلى بلاد الحرمين خلال زيارته الأولى لها، وما صادفه خلال رحلته ومشاهداته أو تجاربه خلالها، إلا أننا لا نجد في ثناياها ما يحيل إلى ذلك، إذ انصب تركيز ابن عمار على المولد النبوي وما تعلق بشرعية الاحتفال فيه والاحتفالات المصاحبة لهذه المناسبة.

- لا نجد في ثنايا الرحلة عرضاً لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم سواء قبل المبعث أو بعده، ولا لمسار الإسلام في تاريخه المبكر، إلا ما أورده من خلال بعض المدائح، وقد كان ضئيلاً جداً.

- يظهر من خلال الرحلة أن لابن عمار ثقافة أدبية وفقهية واسعة جداً، وعلى الرغم من نقولاته الكثيرة من المصادر الفقهية والتاريخية المشرقية، إلا أننا نجده يحاول الموازنة بالرجوع إلى فتاوى العلماء المالكية ببلاد المغرب، وخاصة الجزائريين منهم.

- حاول المؤلف الرفع من مكانة ورمزية المولد النبوي لتبرير الاحتفالات الكبيرة والاهتمام المعترف بهذه المناسبة من قبل السلطة الحاكمة وعامة الناس، رغم الممارسات المنافية للشرع التي استفحلت فيها.

¹ - نفسه، 359.

- لا نجد في هذه الرحلة أخبارا مفصلة عن الاحتفالات بالمولد النبوي في الجزائر خلال عصر المؤلف، إلا بعض الاشارات المحدودة، مع كثرة النقل من المصادر السابقة، فكأنها صارت كتاب تاريخ.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن حمادوش، عبد الرزاق الجزائري: رحلة ابن حمادوش المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب وال الحال، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983.

- ابن عمار: أبو العباس سيدي أحمد: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، تح: عبد الجليل شقرون، رسالة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان، 2017.

- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1998.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، تح: بشار عواد معروف، محي الدين هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1996.

- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1980.

- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تح: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997.

- كامل سلمان الجبوري: معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002.

- الورتلاني، سيدي الحسين بن محمد: الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة
الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1،
2008.